فن الموت في حوار مع اللّاهوتي الفرنسي جان – إيف لولو:
لا مناص من الأنس بالفناء عبر روحانيَّة متكيِّفة مع الحداثة

حاورته
ماري دوهنزل

تقديم

تقوم فكرة هذه المحاورة على ضرورة معرفة التصوُّرات الفلسفيَّة والدينيَّة والميثولوجيَّة التي يُبلورِها الإنسان تجاه الموت. الهدف من ذلك، أن يعيَ، على نحو أفضل، ما تمُثِّله تلك التصوُّرات ويُخضِعَها لتسآلِه الخاصّ. ويجدر القول أنَّ الأجوبة التي تنطوي عليها هذه المحاورة، وهي جزءٌ من كتاب عنوانه: «فنُّ الموت»، ليست تلك التي يبحث عنها الإنسان عندما يستشعر دنوَّ أجلِه بقدر ما هي حالة من القُرب البشريِّ تُساعده على الانفتاح على ما يتجاوز الموت، وعلى سرِّ الوجود، والحبِّ الذي يربط بين البشر.

منذ سنوات، تُنظّم ماري دوهنزل بالاشتراك مع جان-إيف لولو، حلقات دوريَّة حول مسألة الموت الوشيك في التقاليد والأعراف، وفي المراكز الطبيَّة الحديثة. من هذه الحلقات تولَّدت مجموعة أفكار أطلقها المتحاوران أهمُّها وأبرزها: إعادة اكتشاف الطقوس التي وصلت إلينا من طريق الأديان، - تعريف الروحانيَّة المُتكيِّفة مع الحداثة - والإنسانويَّة المفتوحة... إلخ. ففي عالَمٍ مقسومٍ بفعل الآراء والتقاليد، ينبغي أن يجد التعالي والمقدَّس مكانًا لهما في صميم الفرد والإنسان عمومًا. فالدليل الأقوى على الموت، بوصفه مصير كلِّ إنسان، هو أنَّه حيّ. بل إنَّها الحقيقة الحتميَّة التي يصعب القبول بها والإذعان لها، إلَّا أنَّها يمكن أن تخضع لعمليَّة إدراك متأنّية.

يكشف جان – إيف لولو وماري دوهنزل النِّقاب عن عوامل التحريم التي تُخيِّم على موضوع الموت في المجتمعات الحديثة، داعِيَين القارئ إلى الأَنَس به من خلال روحانيَّة مُتكيِّفة مع العصر والعالم الذي نعيش فيه...

ـ تعريب: عماد أيوب

العدد التاسع - 1446هـ - ربيع 2024م

في ما يلي وقائع الحوار:

* **ماري دوهنزل:** ما هو المعنى العميق لمصطلح (الروحانية) الذي يُستخدَم اليوم غالبًا في مقابل مصطلح (الدين)؟ وما الدَّاعي إلى الخلط بين المصطلحين، خصوصًا في ظلِّ ما يشوب الأول من شُبُهات عندما لا يأتي في سياق دينيّ؟

- **إيف لولو**: يُحتمل أنَّ يكون لمصطلح الدين لفظان اشتقاقيَّان. الأوَّل (religare) أي الارتباط أو الاتِّصال، بمعنى إقامة علاقة أو وشيجة مع ما يَعدُّه الفرد مطلقًا أو جوهريًّا. ذلك هو المعنى المألوف لمصطلح الدين الذي يُقدِّم نفسه في بعض الطقوس والممارسات، فتنشأ تلك العلاقة. أمَّا الَّلفظ الاشتقاقيُّ الآخر religereفيعني الرَّبط؛ بمعنى أن تربط حدثًا معيَّنًا لكي تستخرج منه دلالة ما. في الحالة الروحيَّة، يمثِّل الدين جهدًا يُقدِّمه الرجل والمرأة على السواء من أجل إعطاء معنىً لعذابهم وموتهم ووجودهم. و(الروحانية) مُستقلّة عن التجربة الروحيَّة، فهي شأن خاصٌّ بالإنسان. ألم يقل لنا القديس جان (يوحنا): "ا (لوغوس) هو النور الذي يُنير كلَّ إنسان يأتي إلى هذا العالم"؟ كلُّ إنسان يمضي إلى حقيقة كينونته يلقى هذا النور.

* **ماري دوهنزل:** بحسب الثَّقافات والحضارات السائدة، هل ثمَّة معانٍ مختلفة لمصطلح (الروحانية)؟

- **إيف لولو**: في التراث الإغريقيِّ "أن يكون المرء روحيًّا" يعني أن يتحرَّر من العناصر الثقيلة التي يتركَّب منها الكائن البشريّ. (الرُّوحي) هو ما ندعوه بـ "البُعد العقليِّ" في الإنسان، أي البُعد الخالي من الانفعالات والغرائز والأهواء. نجد في الأدبيَّات الإلهيَّة مصطلح (النفَس). يُفرِّق القديس بول(بولس) بين (النفسانيِّ) و (الهوائيِّ). الوحي سِمة كلِّ إنسان يُحرّكه تيَّار الحياة الداخليَّة. ويمكن أن يحيا رفقة (الوحي) ورفقة (النفْس). ويتجلّى الطابع الروحيُّ للإنسان عندما يَلِج إلى وحيه، مُتيحًا للحياة أن تتجسَّد فيه. لهذا السبب، ومن خلال تفسير الطابع الروحيِّ بوصفه (وحيًا)، يكون الاعتناء بالمُحتضر بأن يكون المرء هو نفسه.

* **ماري دوهنزل:** في التجربة الروحيَّة التي تُصاحب المُشرِف على الموت، هل نُصادف غالبًا مَن يُعبرِّون أو يلتمسون حاجة روحيَّة بينما هم لا يعتنقون دينًا معينًا؟

- **إيف لولو:** إنَّ المطلب الروحيَّ يُصاغ بما هو كذلك لكنَّه حاضر دائمًا لأنَّه يتعلَّق بحاجة الإنسان إلى الاعتراف به كفرد، بكلِّ ما ينطوي عليه من سرٍّ وعمق. وهذا المطلب لا يعني "المُتخصِّصين

بالجانب الروحيِّ للبشر"، بل كلَّ إنسان: "أنت، الذي تتولىَّ مهمَّة الاعتناء بي عند الاحتضار، بأيِّ نظرة ترمقني؟ هل أنا مُقيَّد بهذا الجسد المُتحلِّل، الذي في طريقه إلى الفناء؟ أيَّة قيمة وأيُّ معنى تعطيهما للوقت الذي تبقَّى لي في الدنيا؟ إنَّ الإنسان الذي يشعر بدنوِّ أجَلِه تُحرِّكه رغبة بأن يتغلّب على نفسه، ورغبة بالإنجاز. إذ يحاول الاقتراب من حقيقته الأعمق، ويُشغَف بكينونته. فهي إذن رغبة روحيَّة. وإذا كان ثمَّة مطلب لدى المُحتضِر فهو مطلب الاعتراف بهذه الرَّغبة من قبل الآخرين. وذلك يعني أنَّ لا يُنظَر إليه بوصفه مجرَّد جسد عليل، بل بوصفه فردًا له تاريخه، وله اتِّجاهه الداخليُّ الخاصُّ، ومكنونه أيضًا. عندما يتحدَّث الفرد إلى المحتضر الذي يتعهَّده بوقار، مُدرِكًا ما للأخير من خصوصيَّة وسرّ، وعندما يضع ثقته - بخلاف المظاهر- في القوَّة الداخليَّة التي تعمل في المحتضِر، يمكن القول ساعتئذٍ أنَّهما يختزنان البعد الروحيَّ في علاقتهما. في العمق، إنَّ استحسان البُعد الروحيَّ للآخر وقبوله، يعني وضع الثقة في مصير الآخر، حتى في قلب المعركة التي هي الاحتضار. ويعني كذلك أنَّه من خلال تلك المعركة يحدث فعلٌ داخليٌّ هو نوعٌ من المخاض يولد بعده شيءٌ مختلفٌ، عملٌ تُخرجه الروح في صميم المُحتضِر. في هذا المعنى، الرعاية في فترة الاحتضار هي ببساطة الحضور والإنصات، وأن نكون أهلاً للثِّقة في ظلِّ ما سيصدر من المُحتضر. بذلك، تكمن المسألة في ثلاثة: الحضور، الإنصات، الثِّقة.

* **ماري دوهنزل:** موقفنا أمام الموت محكومٌ بمُسبَّقة أنتروبولوجيَّة يسهو عنها الوعي في الغالب، حبَّذا لو يتمُّ تحديدها؟

- **إيف لولو:** امتلاك مُسبَّقة أنتروبولوجيَّة يعني بلورة صورة للإنسان انطلاقًا من ثقافة وحضارة ودين، والاعتقاد بأنَّه يُناسِب هذا التمثُّل. وتِبعًا لهذا التمثّل يُحكَم عليه بأنَّه صالح أو طالح، وأنَّ ما يأتيه من عمل أهو حسن أو رديء. وتِبعًا لهذه الصورة، يتمُّ تربية الأطفال. فالمُسبَّقة تشتمل إذن على موقفٍ داخليٍّ هو، قبل كلِّ تحليل، وقبل كلِّ تأمُّل، يعمل على توجيه ممارستنا وطريقتنا في الحبِّ وفي مراقبة المحتضر. سواء في الحب، أم في الموت، أو في المعاناة، لكلِّ واحد منّا "صورة" مُعيَّنة للإنسان، وهي مُكتسَبة لكن غالبًا ما توضَع في دائرة التحليل. وبحسب الثقافة التي يخضع لها الفرد، يمكن أن يُنظَر إلى الألم على نحوٍ مختلف، كما في حالة الاحتضار والموت. سأعطي مثالاً: مقولة "ما دام هناك حياة فإنَّ هناك أملاً" ليس لها معنى إلاَّ في السياق الغربيّ، بينما في سياق آخر (البوذيَّة على سبيل المثال) يمكن القول "ما دام هناك حياة فإنَّ هناك وهمًا". والواقع أنَّ المقولتين صحيحتان، فالتفطُّن إلى قضيَّة العلاج المتفاني يكون تِبعًا للسياق الذي يندرج فيه المعالِج. بذلك تتأثَّر طريقتنا في

مراقبة المُشرِف على الموت والاعتناء به بتمثُّلنا للكائن البشريِّ، وبمفهومنا للحياة والموت.

* **ماري دوهنزل:** ثمَّة رؤى متعدِّدة حول الإنسان، ما هي؟

- **إيف لولو**: الرؤى كثيرة لا تُحصى، لكن بإمكاننا أن نمُيّز منها أربعًا مألوفة للعالم المعاصر، وهي:

-الرؤية الأولى تتعلّق بـ "الإنسان ذي البعد الواحد": الإنسان ما هو إلاَّ جسد ومادَّة، وفكره ليس سوى نتاج جميل لعقله، آلة جدّ معقَّدة لكنّها لا تقبل الاختزال إلى العناصر التي تتألّف منها. فالإنسان لا شيء سوى ذلك المرُكَّب الذي مآله التفكُّك بعد وقت ليس ببعيد. بحسب هذه الرؤية، ليس ثمَّة روح! والنفْس ما هي إلاَّ وهمٌ مُعوَّضٌ أمام اليقين بفناء البشر وهلاكهم. والعقل ما هو إلاَّ لعبة غير أكيدة وعشوائيَّة لتشابكاتنا العصبيَّة! كما ليس هناك ما ندعوه الرُّوح القدس. هذا التمثُّل للإنسان، الذي يألفه بعض المعاصرين، ينتمي أيضًا إلى تقاليد قديمة، كتلك الخاصَّة بأصحاب "المذهب الذرّي"، وأصحاب "المذهب المادّي" في العصور القديمة.

-ثمَّة رؤية أخرى للإنسان تُوصَف بـ "ذات البعدين". ونقطة الانطلاق هي ملاحظة الجسد بوصفه مُفعمًا بالحيويَّة. هذه الحيويَّة، التي تُدعى بـ "النفْس" أو "الروح"، هي ما يُعطي حياة وشكلاً للخلايا والذرَّات. وإذا فُقِدَت لا يبقى هناك جسد بالمعنى الحقيقيِّ للكلمة، وإنَّما مجرَّد "جثَّة"، وهو ما ندعوه "جسد فاقد الحركة". البعض لاحظ أنَّ "التعليمة" أو "الروح" يمكن أن تكون لهما حياة مُستقلَّة عن الجسد الذي تُحرِّكانه. وبإمكاننا الاستناد إلى تجارب معاصرة عديدة. فعلى سبيل المثال، تُبرهن تجارب الموت على وجود الروح "خارج الجسد"، ما يمكِّن الباحث من الاطِّلاع على بعض الملاحظات، بينما ينظر الوسط الاستشفائيُّ إلى الجسد بوصفه ميتًا من الناحية السريريَّة. وغالبًا ما يتمُّ الربط بين هذه التجارب والمناهج الأنتروبولوجيَّة القديمة التي تمُيّز جيّدًا بين الروح والجسد (أفلاطون وديكارت). بهذه الرؤية للإنسان، تكون الروح الخالدة هي الجزء النبيل من الإنسان، أمَّا الجسد الفاني، الذي يبعث على الازدراء، فيُنظر إليه بوصفه لحد الروح بينما هو النُصُب الذي تتجلّى فيه.

-الرؤية الثالثة تتعلّق بـ "الإنسان ثلاثيِّ الأبعاد"، إذ هو مُركَّب من روح وجسد ونفْس. تتصدّر النفْس طليعة الروح، وتُشكِّل طاقة التأمُّل الصامتة التي يُخضعها الباحثون المعاصرون للتجريب خلال البحث، علمًا أنَّها معروفة لدى المدارس القديمة. مرّة أخرى يبرز توجُّهٌ إلى إبراز البعد

العدد التاسع - 1446هـ - ربيع 2024م

التأمُّليِّ للإنسان على حساب البعدِ الوجدانيِّ (النفسانيِّ) والجسديِّ (الجسمانيّ). سوف نتناول التجربة المنيرة لـ(النفس)، تجربة النفس الخالية من كلِّ مفهوم وكلِّ تمثّل. لكنَّ المرآة التي تعكس أشعَّة الشمس لن تصبح شمسًا! بل بطريقة معيَّنة بإمكانها هي أيضًا أن تصبح، من خلال ضوئها، مصدرًا يستمدُّ النور من الشمس. فالنفس هي المكان، والحريَّة التي تستقبل ضوء (الروح). والواقع أنَّ هذا الخلط ناجِم من أنَّنا لا نجد في الفرنسيَّة سوى كلمة واحدة نُشير بها إلى روح الإنسان والروح القدس.

-أخيرًا، ثمة رؤية رابعة للإنسان لا تنفي أيًّا من العناصر الأنتروبولوجيَّة التي ذكرتها، وهي الجسد والروح والنفس، بل تربط في ما بينها. وهي تتناول الروح والوحي الذي يسكن ويُلهم ويُنير المركّب البشريّ. وبالنظر إلى ذلك، أن أكون روحانيًّا (أو "هوائيًّا" بحسب تعبير القديس بول) لا يعني بالتأكيد إنكار الجسد بل أن يُسمَح له ببلوغ مرتبة الشفافيَّة والتجلّي. ويتحلَّى بعض الأشخاص المُسنّين ذوي الأجسام النحيلة بالشفافيَّة التي نراها ترتسم على وجه المُحتضِر. وبالنظر إلى ذلك، لا يتعلّق الأمر بإنكار الأبعاد الوجدانيَّة والعقليَّة، بل بفتحها وإخراجها من قبضة التأثير والكفِّ عن تقييدها بحدودنا التي هي محسوسة. إنَّ الأنتروبولوجيا الأخيرة التي يمكن وصفها بـ "الرباعيَّة" تحترم الإنسان بكلّيَّته جسدًا وروحًا ونفسًا. فهي تحترمه وترعاه أيضًا من أجل "سرِّه" ومن أجل "الروح" الصامتة التي تمنح الإنسان الاتِّساق والتماسك. المعالجون الاسكندرانيون أخذوا بالحسبان، إلى جانب حاجاتهم الجسديَّة ومطالبهم الانفعاليَّة وبحثهم الدؤوب عن المعنى، البُعد الأنطولوجيَّ للإنسان. لقد تحدَّثوا في هذا الصدد عن "الاعتناء بالكينونة"، وهو أمر يدعو إلى المفارقة. ولكن، أليس انطلاقًا من التمتُّع بالحياة والتنعُّم بالصحَّة الجيّدة يمكن للإنسان العليل أن يعثر على بعضٍ من قواميَّته وكرامته، أي كينونته الجوهريَّة؟ ما دامت "كينونته الوجوديَّة" قد ذهبت هباءً منثورًا.

* **ماري دوهنزل:** ثمَّة سلوكات تتبلور إزاء الموت تعكسها هذه الرؤى، ما هي؟

- **إيف لولو:** هناك أولاً السلوك الذي نألفه في عصر المادّيَّة الذي نعيشه. وهو يتجذَّر ضمن مبدأ أو عقيدة إنسانويَّة ملحدة تعود إلى العصور القديمة (أبوقراط، ديمقريطس، لوكريتيوس)، ثمَّ أعيد التأكيد عليها من قبل فلاسفة التنوير. في هذا السياق، يُمثّل الموت نهاية الحياة، ويعني توقُّف النشاط البيولوجيِّ النفسيِّ والنشاط العصبيِّ الفيزيولوجيّ. فلا وجود إلاَّ للعلاقة المتبادلة الاحتماليَّة بين ذرَّاتنا، أي الُّلعبة غير الخاضعة لأيَّة ضوابط بين تشابكاتنا. وسواء اخترنا ألاَّ نُفكّر بالموت كما

فعل فولتير، أو واجهناه كما صنع هايدغر، فإنَّه يبقى فضيحة، ومُحالاً ويعجز اللسان عن وصفه. هذا هو الموقف المُسيطر اليوم في الغرب، والذي يقف وراء كلِّ مواقف الإنكار والإدبار والهروب والتصلُّب العلاجيّ غير المبُرَّر، ووراء التصرُّفات التي تُحفِّز على الانتحار. أمام هذه الإنسانويَّة المُلحدة، يتولَّد الموقف الروحيُّ من عقائد توحيديَّة تذهب إلى أنَّ الحياة والعذاب والمرض والموت إنمّا هي أمكنة انتقال وأوقات امتحان يمكننا "تأويلها"، أي يمكننا إعطاؤها معنىً. في العقيدة المسيحيَّة واليهوديَّة يُعدُّ الموت انتقالاً. وهذه هي دلالة لفظة (Pâque) فالموت، إذًا، هو انتقال إلى حالة مختلفة من الوعي. ونلفت هنا إلى أنَّ كلمة (أناستاسيس) التي تعني (البعث) تدلُّ على التموضع في العلوِّ، في العمق؛ في هذا البعد الذي سمَّاه القديس جان بـ "الحياة الأبديَّة"، أي المكان العميق غير المشروط بالمكان والزمان. إنَّ هذا الانتقال يجب أن يكون مصحوبًا باحترام لامحدود وبالثقة تجاه الآخر. وترى هذه الثقة أنَّ بمقدور المُحتضِر، رغم الألم والعذاب اللَّذين يعيشهما، بمقدوره "الانتقال" من خلالهما لا بجانبهما. ولعلَّ ما أثار إعجابي في المسيحيَّة هو أنَّها لا تلغي العذاب، بمعنى أنَّها لا تعدُّه وهمًا. فهو حقيقة يُذعن لها القلب حتى لو جلبت على صاحبه الشرّ. بذلك يجب القبول -حتى لو أثار ذلك الخوف في نفوسنا- بأنّنا قد "نُصاب" بالعذاب الذي يُسبِّبه لنا الآخر. من خلال الشفقة نتلقّى بعضًا من العذاب من دون أن يكتسحنا الألم الذي لا صلة لنا به. ولا تصبح هذه الشفقة أمرًا ملموسًا إلاَّ عندما يكون الشخص الذي يعتني بالمحتضِر قابعًا في المكان الذي يدعوه البعض "المسيح الداخليّ".

ثمّة أخيراً موقف رائج تشترك فيه العقائد البوذيَّة ونجده في العقيدة العبريَّة. في هذا السياق يُنظر إلى العذاب والموت على أنّهما وهميَّان وينتميان إلى كائن نسبيٍّ يُدعى (الأنا) أو (الذات) الذي هو ليس سوى رزمة من الآثار والذكريات التي ليس لها وجودٌ خاصّ. إنَّ الموت ليس نهاية الحياة، بل نهاية الوهم، الخلاص من العذاب ومن تسلسل الأسباب والمُسبَّبات. ولذلك، فهو لحظة مباركة، وأقدس لحظات الوجود، وفي النهاية هو فرصة الدخول في فضاء لامحدود. إنَّه اللَّحظة التي تنجلي فيها الحقيقة. من هنا، ينبغي النظر إلى إلى الموت بطريقة مباشرة، لا من أجل الالتذاذ به، وإنمَّا من أجل الذهاب من خلاله إلى ما هو أبعد منه. يستند هذا الموقف إلى أربع حقائق نبيلة أرساها بوذا خلال إحدى خطبه.

-الحقيقة الأولى، تُذكِّرنا بأنَّ كلَّ شيء يتَّصف بعدم الثبات. كلُّ ما هو مُركّب لا بدَّ من أن يتحلّل. الحكمة لا تقضي الاشتكاء من عدم الثبات بل القبول به.

-الحقيقة الثانية، وهي "تانها"، تُبيّن سبب عذاباتنا وهو التعلّق. تدعو البوذيَّة إلى الانفصال عن النفس، وبوجهٍ ما إلى العيش مع جروحنا النرجسيَّة.

-الحقيقة الثالثة، وهي "النرفانا"، تنصُّ على أنَّ كلَّ مخلوق يشتمل على حقيقة غير مخلوقة، هي النور الجليُّ الذي يراه كلُّ إنسان عند الاحتضار.

-الحقيقة الرابعة هي (الطريق السامي الثماني)، وتُفيد التكيُّف مع ما هو قائم.

* **ماري دوهنزل:** ما هي النتائج العمليَّة للسلوك البشريِّ أثناء الاحتضار؟

- **إيف لولو:** في العقيدة البوذيَّة (باردو تودول) هو النصُّ الذي يرجع إليه في قضيَّة الاعتناء بالمُحتضِر. هو ليس كتابًا عن الأموات بل عن "الإعتاق من خلال الإنصات الواعي إلى ما يدور بين المحتضِر وصاحبه. هذا هو المعنى الاشتقاقيُّ لكلمة (باردو). يتناول (باردو تودول) فنَّ العيش لا فنَّ الموت. هو فنُّ الانتباه إلى الظواهر الناشئة في هذه العوالم التي توصَف بـ "الوسيطة" بين الوعي العاديِّ مع ما يشتمل عليه من ثنائيَّات، والوعي البحت الخالي من أيِّ ثنائيَّات. إن دور مَن يقوم بالاعتناء بالمُحتضِر، وهو (اللَّاما)، هو أن يُهيّئ للمُحتضِر الظروف المُلائمة لكي يستطيع الانفتاح على ما تدعوه العقيدة البوذيَّة "النور الجليّ". تستوقفني عبارة جميلة في النصِّ البوذيِّ: "اسمع أخي الكريم (لا بدَّ من تأدية فرض التبجيل للآخر ومراعاة هويَّته العميقة)، ها قد حانت ساعة الموت. فلْتتَوَجّه روحك نحو الفضاء اللَّامحدود، تلك الروح النقيَّة البريئة من الدّنس والتي هي الطبيعة الأصيلة لكلِّ إنسان. يطلب اللَّاما من المُحتضِر ألَّا يظلَّ رهينة الندامة والحقد والضغينة، ويدعوه إلى أن يمضي إلى ذاته. هذا ما نجده في خطاب الله إلى ابراهيم (اذهب إلى نفسك، فأنت لا تنتمي إليّ. بوركَت الحياة التي أتاحت لنا المجال للسير معًا قُدُمًا، لا تتوقَّف بفعل العذاب الذي أنت غارق فيه، اذهب". نجد الفكرة نفسها في التطويبات التي قام أندريه شراقي بترجمتها. يُشدِّد النصُّ البوذيُّ على ضرورة أن يستعيد اللَّاما صفاته الذكوريَّة كما الأنثويَّة. إذ يحتاج الإنسان في مرحلة الاحتضار إلى العامل الأنثويِّ والأموميِّ، وإلى الحنان والنعومة، لكنَّه يحتاج أيضًا إلى العامل الذكوريّ. يحتاج إلى مقولة "يمكنك". هذه هي السلطة الحقيقيَّة التي تُجيز وتمنح الثقة. إنَّ الاعتناء بالمُحتضر هو وظيفة نبويَّة يمكن أن تفتح طريقًا. فالموت، إذًا، مناسبة ليقظة النفس. وبوصفه كذلك، هو فاجعة. لذلك، نتبيّن أنَّ الاعتناء بالمُحتضِر لا يعني البكاء وحبس الإنسان، بل دعوته إلى اكتشاف النور البحت الذي تنطوي عليه حالة الاحتضار. ثمَّة مقولة في الهند: "لا تنغمس في (أنا) كَ، هذه (الأنا) الفانية، بل تذكّر أنَّك مسكون بـ (النفس). إنَّك كذلك.

أنت ابن والديك وابن المجتمع الذي تعيش فيه، ولكنَّك أيضًا ابن الريح وابن (الروح) الذي يسكن فيك. استفِد من هذه الزفرة لكي تزفر في (النفس)، فتصبح (النفس). الأغاني والموسيقى المرافقة والخُطَب التي تُطلَق في مقام الاحتضار تهدف إلى تلطيف العذاب، لكنّها تهدف أيضًا إلى التذكير بأنّنا، وإن أحببنا "هذه الأرض"، منها خُلِقنا. ونحن بمثابة استقطاب سماويٍّ، واللّحظة التي تزول فيها الأرض وتتحلَّل ربما هي ذاتها لحظة الإقبال على معانقة البعد السماويِّ فينا، والذي ندعوه (النفس)، (الآخر المُختلف تمامًا)، (النور الجليّ، الضمير الآخر).

* **ماري دوهنزل:** من بين السلوكات المُمكنة إزاء الموت، ما تقول في احتضار مَن هم بلا اعتقاد دينيّ؟

- **إيف لولو**: إنَّ الذين أخرجوا أنفسهم من دائرة الدين والعقيدة لهم صفات بشريَّة لا تقلُّ قيمة عن تلك التي يرتبط بها انتماء دينيٌّ بعينه، لأنَّ مقاربة الموت تبقى رغم كلِّ شيء مقاربة إنسانيَّة. لذا، يجب التشديد على أنَّ وظيفة الأديان تكمن في إيقاظ وجلاء الصفات البشريَّة العميقة. بذلك يكون السؤال الحقيقيُّ: هل نحن كائنات بشريَّة بكلِّ ما تحويه لفظة (إنسان) من دلالات عميقة؟

* **ماري دوهنزل:** لا يتعلَّق الأمر بإعطاء مَن يتولىَّ الاعتناء بالمُحتضِر ثقافة دينيَّة وروحيَّة، وإنما ثقافة إنسانيَّة. في بعض المستشفيات لا يقع التقصير في الجانب الروحيِّ، بل في الجانب الإنسانيّ. وليس مطلوبًا بناء علاقة مع المرض، بل مع الشخص الذي يعاني منه، أي مع روح هذا الشخص إذا توخَّينا الدقَّة، سواء أكنّا نؤمن بذلك أو لا. وينبغي علينا أن نحترم هذا البعد في الإنسان. وبرأيي، البعض ممَّن يتولىّ المهمَّة يجعلها مُشوَّهة. وأرى أنَّ مأساة الإنسان المعاصر لا تكمن في إعدام (رفض) الحياة الجنسيَّة، وإعدام الجوانب الإبداعيَّة والانفعاليَّة، بل في إعدام الجانب الروحيِّ للإنسان. وسواء أكنّا نعتنق دينًا ما أو لا، فإنَّ الاعتناء بإنسان في نهاية حياته يجب أن يأخذ بعين الاعتبار هذا الجانب. ومن واجبنا ألَّا نشعر بالعيب في هذا الخصوص. ليس هذا فحسب، بل علينا كذلك أن نعي أنَّ الجانب الروحيَّ يشتمل على فاعليَّة مختلفة هي فاعليَّة القلب.

* **إيف لولو**: أليس الخوف الذي يولِّده الموت ناجم عن استحالة "إعطاء معنى"؟ وهل من الممكن - والضروريِّ - إعطاء معنى للموت أو لفقدان المحبوب؟

- **ماري دوهنزل**: ينبغي إعطاء معنى للوقت الباقي من حياة المرء. فالمرء يُفكِّر غالبًا في معنى الحياة بدلاً من التفكير في معنى الموت. وقد يتعلَّق تفكيره بالماضي: "فيمَ أمضيت عمري؟" يُعيد

قراءة حياته بما اشتملت عليه من سعادة وخيبة وخجل... إلخ. كما يُفكِّر أيضًا بمفهوم الوقت الباقي من عمره. عندما يشعر أحدنا أنَّه مُشرِف على الموت، يسأل عن معنى الأسابيع والأشهر التي بقيت من عمره. يرى الكثيرون اليوم أنَّ ما يبقي من عمر الإنسان ليس له أيَّة قيمة، خصوصًا إذا "لم يعد هناك ما يجب عليه فعله". نسمع عادةً عبارة "ما دمْنا لا نستطيع فعل أيِّ شيء لماذا لا نبادر إلى التخفيف والإيجاز؟". بيد أنَّني أنظر إلى الأمر نظرة مختلفة، فلا أظنُّ أنَّ الإشراف على الموت يعني أنَّه لم يعد هناك ما يعيش الإنسان لأجله. لقد أثبتت لي تجربتي ومراقبتي أنَّ فترة الاحتضار لها قيمة، وأنَّها فترة التحوُّل الممكن. عندما يشعر الإنسان باقتراب أجله يشرع، بوعي منه، في نشاط داخليٍّ يبدأ من إعادة ترتيب للقضايا الماديَّة الملموسة وصولاً إلى إعادة ترتيب للعلاقات -الذهاب إلى لقاء شخص بعد أن كانا مفترقين، والاعتذار ممَّن سبَّب له صدمة... إلخ. ومن الملاحظ أنَّ المُشرِف على الموت يشعر بالحاجة إلى أن يبلغ النهاية. هذه الحاجة يصفها ميشال دو موزان وصفًا جميلاً إذ يقول عنها إنَّها نوع من "ولادة الذات" في النشاط الداخليِّ الذي يُنظَر إليه "بوصفه محاولة للتموضع بصورة كاملة في العالم قبل الرحيل عنه". هذا يعني أنَّ البعض ممَّن يشعرون أنَّ الوقت الباقي من حياتهم قصير يُنجزون الأعمال بسرعة؛ وبلا ريب ثمَّة دائمًا أعمال غير مكتملة. وبديهيٌّ أنَّ المُصاب بداء العضال لن يستطيع تحقيق ما كان يصبو إليه نظرًا لِملازمته السرير. بيد أنَّه سيحاول الإشارة إلى ما حُرِمَ منه في حياته من خلال حركة، أو كلام، أو نظرة تنطوي على رغبةٍ ما لا يقدر على تلبيتها أو لا يصل فيها إلى النهاية. إننا نرى أشخاصًا أنذالاً وعدوانيين يتحوَّلون في نهاية حياتهم إلى لطفاء وطيّبين، يخاطبون أقرباءهم بكلمات الحبِّ والمودَّة التي لم تصدر عنهم في السابق. وهم يبتغون بذلك "لملمة" جذوة الحب التي كانت فيهم والتي لم يعرفوا أن يعيشوها ويعبِّروا عنها. لكنَّ إشارتهم إلى هذه البادرات الحسنة وهذه الكلمات تتَّسم أحيانًا باللَّطافة وبرهافة شديدة بحيث لا نلتفت إليها. لذلك نتعاطى مع سلوك المحتضِر بإصدار أحكام سوداويَّة مُتشائمة وسلبيَّة. وغالبًا ما ندفع المُحتضِر إلى أن يكون رهينة رؤية سلبيَّة وخاطئة لحالته بحيث لا يعود قادرًا على الخروج والتحرُّر من نظرتنا إليه. فالمطلوب منه عندئذٍ التحلّي بشخصيَّة قويَّة للتغلُّب على ذلك ولإعطاء معنى لما يجري حوله وعليه.

* **ماري دوهنزل:** نحن في التربية نشجب الكذب، لكنَّه أصبح أمرًا مشروعًا، بل مطلوبًا، عندما يتعلّق الأمر بالمرض والموت. في فترة مواكبة المُحتضر، هل من الصواب أن نكذب؟ وهل ينبغي علينا قول الحقيقة؟

- **إيف لولو**: تضعنا هذه القضيَّة مرَّة أخرى أمام مُسبّقة أنتروبولوجيَّة، إذ من الصحيح أنَّه لو صدَّقنا أنَّ الإنسان يأتي إلى هذا العالم مرَّة واحدة ويعيش فيه حياة واحدة، فلا بدَّ من إطالة أمدها قدر الإمكان، وأن يُتاح له أن يقضيَ ما بَقِيَ من عمره في ظروف مثلى. فولتير مثلاً يرى أن إخبار المُشرِف على الموت باقتراب أجله هو بمثابة تسميم لحياته، إنَّها خاتمة أيامه. وبالتالي يجب بأيِّ شكل إخفاء الحقيقة عنه وإخباره بأكاذيب جميلة. لكنَّنا بهذا الموقف نُغفل أنَّ جسد المُحتضِر يُدرِك جيّدًا أنَّه أوشك على الموت، وبالتالي عدم قول الحقيقة له يُشعره بحالة من التوحُّد (المعروف في أوساط الطبِّ النفسانيِّ)، وبات على المُحتضِر أن يتلقّى "رسالة مزدوجة". فإذا قِيل له شيء ما، يصرخ جسده العليل مُعلنًا أمرًا آخر. أمام هذه الرسالة المزدوجة يضطرب المُحتضِر اضطرابًا قويًّا.

إنَّ المُشرفين على الموت يختبرون حالات عديدة من الاضطراب نكون نحن أحيانًا السبب فيها عندما لا نبادِر إلى قول الحقيقة لهم، في حين أنَّ أجسادهم تُنبئهم بما تعانيه. لا ترتبط القضيَّة بإخبارهم بالحقيقة أو عدمه، وليست محصورة بالاختيار بين الحقيقة والكذب. إنَّ الكذب أمر مُضِرّ دائمًا، سواء للمُحتضِر أم في الحياة عمومًا. لكن في حالة الاحتضار من شأنه أن يزيد المشكلة تعقيدًا. بذلك تصبح المسألة مُتعلّقة بكيفيَّة قول الحقيقة للمُحتضِر من دون أن يجعله ذلك رهينة عوارض المرض. والحقيقة التي تُقال بطريقة فظّة هي أسوأ من الكذبة. لذا، يجب على الطبيب أن يتحلّى بالشجاعة - وهذا الأمر من ضمن مهنته- لكي يُعلن "الأمر الواقع" من دون أن يؤدّي ذلك إلى وضع المُحتضِر تحت رحمة الهلاك، لأنَّ الطبيب ليس هو مَن يَهَب الحياة. ولكن ليس عليه إخفاء ما تكشفه أدواته وآلاته عن المرض، وإلاَّ فهو يواسي المريض بالكذب؛ وإذا تعاون معه من وجهة نظر واعية، فإنّ المريض سيتلقّى بطريقة لاواعية الرسالة الخفيّة للطبيب.

إذا كان إخفاء الحقيقة يُعدُّ على مستوى أخلاقيَّات المهنة أمرًا بالغ الخطورة فالسؤال المطروح هو: كيف تُقال الحقيقة للمُحتضِر؟ هنا تبرز أهمّيَّة نبرة الصوت وحركة اليد والنظرة؛ كلُّ هذه السلوكات توفّر للمريض مخرجًا يستنقذه من النزعة التبسيطيَّة التي يعتمدها الطبيب في تشخيص المرض. فالطبيب حاضر لتذكير المريض بأنَّ حياته تتوقَّف على المرض، وأيضًا لتذكيره في آخر لحظات حياته بأنَّه ليس مجرَّد مخلوق كغيره من المخلوقات الفانية. لكنَّ ذلك يُحتِّم على الطبيب أن يتوفّر على رؤية شاملة للإنسان.

* **ماري دوهنزل**: أليس المريض هو الذي يطلب أحيانًا، ومن دون وعي، أن نكذب عليه؟

- **إيف لولو**: المريض يطلب ذلك سواء بوعي منه أم عدمه كما كان يفعل طوال حياته. لا يتوقّف

المرء عن سماع الأكاذيب من الآخرين لأنَّ ذلك يُشعره بالاطمئنان وبأنَّه شخص محبوب ويُحبُّ غيره. والحقيقة أنَّ المريض يحبُّ أن نُخبره بأنه لن يموت حتى وإن كان جسده يعلم أن الموت مُحتّم ولا مناصّ منه. يرغب المريض أحيانًا بأن نُسمعه أخبارًا كاذبة لكن يصل إلى وقتٍ تكون فيه كلُّ كينونته غير قادِرة على سماع الأكاذيب ولا على الكذب. وإنَّه لأمر مؤسِف ومُخزٍ أن يكتشف أنّ نهاية حياته كانت كذبة كبيرة. يُصبح الموت، كما يرى أصحاب العقيدة البوذيَّة، مجرَّد "نهاية وهم" بل نهاية كذبة. فالاعتقاد بديمومة الأشياء هو شكل من الكذب. هل يُعقَل أن نتصوَّر شيئًا جميلاً على الدوام، ذكيًّا على الدوام، حيًّا على الدوام؟ دنوّ الأجل يمكن أن يُشكّل بِحقّ مناسبة يكتشف الإنسان خلالها أنَّه مائت. تلك هي الحقيقة الكبرى بكلِّ بساطة التي لو قُدّر لنا فعلاً أن نعيشها ستُعتِقنا تمامًا من الجمال الذي ذَبُلَ، من الذكريات التي ذهبت، من الذكاء الذي تلاشى، من الحياة التي ستنتهي قريبًا. لأنّ من يُذعِن لحقيقة أنَّه فانٍ يكون أكبر من الموت.

لكن على عتبة الموت، مِمّ نخاف؟

* **ماري دوهنزل**: ينبع الخوف من أمرين أساسيَّين، الأول هو الألم الجسدي قبل الموت وأثناء الاحتضار، والثاني هو العزلة والهجران. هذا هو السبب وراء تركيز آليَّات الرعاية في مرحلة الاحتضار على تخفيف وتسكين الألم الجسديِّ والبقاء بالقرب من المُحتضر. لكن إلى جانب هذين الأمرين تبرز عوامل أخرى كالخوف من الانفصال عن الأحباء، ومن انقطاع وانتهاء العلاقات، والخوف الناجم من تدهور الصحَّة الجسديَّة والعقليَّة، ومن فقدان صورة مُعيّنة للذات. كذلك يخاف المُحتضِر من فقدان السيطرة على الأشياء، وفقدان استقلاليَّته فيصبح تابعًا تحت رحمة الآخرين. وبالتالي، الموت يعني فقدان كلِّ هذه الأمور، وهذا بحدِّ ذاته يُخيف الإنسان أكثر من الموت نفسه.

- **إيف لولو**: للتنعُّم بهذه الأمور يجب أن يشعر المريض أنَّه شخص محبوب بصرف النظر عن الوظائف والصورة التي تُعرِّف عنه. وغالبًا ما تكون الثقة بالحبّ أمرًا معدومًا. إنَّ الأصل الذي ينطلق منه الخوف من الموت هو خوفٌ المرء من أن يحبّ أو يُحَبّ. وهذا ما يدعوه أخصائيو الطبِّ النفسيِّ الصدْع \ الفلق النرجسيّ. يتأسَّس الانفعال المُرتبط بالموت على ذكرى قديمة. أحيانًا يكون الخوف من الموت مُرتبطًا بتجارب مؤلمة، على سبيل المثال عندما نضع ثقتنا بشخصٍ ما ونظنُّ أنّه يُبادلنا مشاعر الودِّ ثمَّ نكتشف أنَّنا مخدوعون وينتهي الأمر بالترك. وبعدها نعجز عن منح الثقة لأحد لأنَّ المشاعر التي ترسَّبت فينا بعد التجربة المريرة جعلتنا نعتقد أنَّنا غير مُرحَّب بنا. إنَّني أفهم القديس يوحنا بصوة كاملة عندما يقول إنَّ نقيض الحبِّ ليس الكراهيَّة بل الخوف. إنَّ الحبَّ

علم المبدأ
العدد التاسع - 1446هـ - ربيع 2024م

الحقيقيَّ يلغي الخوف ويُعتِقنا منه. فذواتنا تنطوي على كلِّ ضروب الخوف التي تتجذّر في نفْس كلٍّ منا، تلك الضروب التي ينبني من خلالها البعد الروحيَّ أو الدينيَّ الذي لا يوفّق بين الأشياء بصورة دائمة. كذلك فإنَّ الجرْم والذنب إنّما ينبنيان انطلاقًا من ضروب الخوف تلك. فالخوف من المعاناة هو سبب للعذاب، ويجلب على صاحبه الشعور بالذنب من جراء المرض، والشعور بأنّه مسؤول عن الشقاء والأذى اللَّذين لحقا به. أمَّا البحث عن السبب فيقود إلى البحث عن المتّهم. في هذا المجال، لا يسعنا إنكار أنَّ بعض الخطابات الدينيَّة اليوم تزعم أنَّ المرض هو عقوبة من الله، فكيف الخروج من هذه الإشكاليَّة؟ إنّ دور الممارسة الدينيَّة والروحيَّة لا يرتكز على تعميق الخوف المُرتبط بذكرياتنا وأفكارنا، ولا على مضاعفة الذنب. فليس الإنسان هو النتيجة السلبيَّة لأفعاله. وبرأيي هنا تبرز ضرورة الصفح والغفران. ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ مهمّة الممارسة الدينية والروحية تذكير الإنسان بهذه المقولة التي تُسمَع غالبًا: إذا حكم عليك قلبك بالإدانة فإنَّ الله أعظم من قلبك. وذلك يعني عدم تطويق الإنسان بالخوف والذنب.

* **ماري دوهنزل:** أليس ثمَّة خوف من "المجهول" أمام الموت؟

- **إيف لولو**: في الواقع، إنَّ ما يُثير الخوف في نفس أحدنا يُشعِر الآخر بالانبهار فيقول في نفسه: "في نهاية المطاف سأعرف.. سأعرف الحقيقة، سأقابل الحقيقة وجهًا لوجه." وينسجم ذلك مع موقف القديس جان: "سنرى الله بالصورة التي هو عليها" أي سنرى "الحقيقة" بما هي عليه، منزوعة التأويلات والذكريات والإسقاطات الخاصّة بـالأنا. لكنّ "المجهول" يولّد في نفوسنا الجزع من تلك الحقيقة، ويزيدنا جزعًا عندما نُروّج في التربية لفكرة أنَّ ساعة الموت هي ساعة الحساب. هناك حِقَب في التاريخ المسيحيِّ – اليهوديِّ كان يُعتقد خلالها أنَّ حُسن الخاتمة هو في إدراك المرء أنَّ الموت أقبل إليه، وأنَّ أمامه بعض الوقت للتأقلم معه. وكان يصلّي ويأمل بأن يُرزَق حسْن الخاتمة. بالنسبة إلى القدماء، رأى النبيُّ ابراهيم أنَّ الموت "راحة" "سنذهب للراحة بجانب آبائنا". فلندعو أبناء ابراهيم ليستمعوا إلى الكلمات الأخيرة المليئة بالحكمة: "إنعَم براحتي". أخيراً سنخلد إلى الراحة. وورد في التوراة: "رَحَلَ بعد الشبع والإكتفاء من العمر". أمَّا اليوم فنسمع في الصلوات تمنّيات من قبيل: "ليتني لا أموت! من المؤكّد أنّني سأموت، لكنّي لا أتمنّى بلوغ اللَّحظة التي سيدركني فيها الموت".

حريٌّ القول أنَّ ضروب الخوف تتغيَّر وبينها وبين ذكرياتنا الشخصيَّة صِلة مؤكّدة، وكذلك توجد صِلة بينها وبين المجتمع الذي نعيش فيه. وعليه، فإنّ مفهوم "حسْن الخاتمة" يختلف بين العصر

الوسيط والعصر الذي نعيشه. فاليوم يُفضّل معظمنا الموت العنيف والشنيع، تفاديًا للسؤال عمّا سيأتي بعده. خلافًا لذلك، في بعض الأوساط المسيحيَّة والبوذيَّة والهنديَّة، تبقى ساعة الموت هي ساعة الحساب. نجد هذه الفكرة في الميثولوجيَّات المعاصرة: قبل التأمُّل في "النور الجليّ" الذي نمضي إليه عابرين النفق المظلم سنجد أعمالنا الصالحة وأعمالنا الطالحة في "مرآة العدالة". تصبح ساعة الموت حصيلة ما عاشه الإنسان على المستوى الشخصيِّ والجماعيّ. لذا، يمكنه عند الاحتضار أن يكون شاهدًا على الصور الغريبة. ويمكن أن يتبلور لدينا انطباع بأنَّ بعض الأشخاص بصدد إيجاد حلول لمشاكلهم الخاصّة، وليس هذا فحسب، إنَّهم يُنجزون عملاً شبه "عابر للأجيال"، ويسعون لإتمام العمل لا من أجل أنفسهم وإنما من أجل المجتمع ككلّ.

إن الموت واقع معقّد، بينما أدّى الخوف من الحساب إلى تهويل الموت. لكن غاب عن أذهاننا أنّنا سنُحاكَم انطلاقًا من نظرة ليست بنظرة قاضٍ بل هي نظرة طفل لا تقلّ إرعابًا وتهديدًا ووعيدًا، لأنّها نظرة البراءة. أمام البراءة سنعي إلى أيِّ حدٍّ قصَّرنا في اعتناق الحبِّ، وإلى أيِّ حدٍّ قصَّرنا في اعتناق الحياة. إنَّني أعتقد فعلاً أنَّ محاكمتنا ستنطلق من نظرة طفوليَّة، لكنّها تُظهر رحمة غير متناهية فلا داعي للخوف. بذلك نستطيع أن نعيش الموت مصحوبًا بحالة من الصفاء والرجاء الكاملين، ولو أنَّها حالة شبه مفارقة. كنتُ أرى أحيانًا بعض الناس يطلبون لأنفسهم الخلاص وهم على شفير الموت كما لو أنَّ الحبَّ الذي لم يبادلوه يومًا يُقدّمونه الآن في اللَّحظات الأخيرة من حياتهم. في أوقات مُعيّنة قد نجد بعض الصلات العائليَّة تنتهي، وهو أمر يُشبِه نوعًا من الغوص في بعد آخر داخل ذواتنا بحيث نمنح العفو. هؤلاء يموتون بعد التصالح مع ذواتهم. يُفترَض بالصحبة والمواكبة الروحيَّة أن تُرجع الفرد إلى المكان الذي يتوفّر فيه قدر أكبر من الحبِّ والعفو والمغفرة، ويضمّ أمواتًا توّاقين إلى الفداء، وإلى العطاء الذي "يُنقِذ" بوجهٍ ما عائلة كاملة أو جيلاً كاملاً. لذلك، نحن بعيدون كلَّ البعد عن الخوف. فالحبّ يلغي الجزع، وإذا نحن ولِدنا لكي نتعلّم أصوله فإنّنا حتى في اللحظات الأخيرة من حياتنا لم نتأخّر كثيراً للقيام بذلك. لا يموت الإنسان قبل أن يحبَّ، وقد تكفينا دقيقتان لكي ننسى خلالهما ما تحمله نفوسنا من ضغائن، وأيضًا لكي ننسى ما كابدناه. وقد يلوح لأحدنا ثقب يُشبه الممرّ عبر قبر فارغ، وبذلك نتغلَّب على الخوف. والواقع أنَّ تخطّي الخوف والذنب يقودنا، كما ورد في قصَّة القبر الفارغ في الإنجيل، إلى البعث، وإلى حالة من الحبِّ أقوى من الموت.

* **ماري دو-هنزل**: في ما يتعلَّق بالخوف من المجهول، أريد أن أسرد حكايةً ذات مغزى ومضمون.

لقد التقيتُ غالبًا بِأناس عبرَّوا لي عن خوفهم من الانتقال من هذه الحياة. في الواقع إنَّ ما يعنينا هو فكرة الترّك، التخلّي عن الذات أمام الموت. ولا يتعلّق الأمر بالخوف من الموت بحدِّ ذاته، وإنَّما الخوف من الانتقال إلى المجهول. لقد نوّهْتُ عمومًا بأنَّ بدن الإنسان يعرف اجتياز المعبر الأساسيّ. لكن ما سبب عدم قدرته على الموت؟ ينبغي علينا أن نثق بأجزائنا التي تُحسِن التحوّل واجتياز الممرّات. وربمَّا يمكننا أن نشعر أيضًا أنَّ بمقدورنا أن نحظى باستقبال لأنفسنا عند الموت كالاستقبال الذي لقيناه عند الولادة. لقد تطرّقت فرانسواز دولتو إلى مفهوم الاستقبال واستخدمت عبارة "لجنة الاستقبال" عندما تحدّثت عن هؤلاء الّلامرئيين أو المحجوبين عن البصر (الأموات الذين سبقونا) الذين يحضرون لاستقبالنا عند الموت. هناك مَن يزعم وهو على سرير الاحتضار أنّ أحد الأموات أتى لزيارته. سيُقال إنَّها مجرَّد هلوسات، لكنه ليس مُصابًا باضطرابات ذهانيَّة، ولا هو تحت تأثير أحد الأدوية والعقاقير التي قد تتسبّب في إلحاق الضرر بجهازه الإدراكيّ.

معظم الفلاسفة اعتبروا أنَّه من غير الممكن الإعداد للموت، أو بتعبير أدقّ، "التعلّم على الموت". هل يكون البديل لذلك بأنَّ نتعلَّم أن نُحبّ؟ وهل يكون ذلك بالمعنى الذي قصده صاحب (أنشودة الأناشيد)، أن نتعلَّم أن نقول للآخر "اذهب..."؟

- **إيف لولو**: نعم بالتأكيد. أن نتعلَّم العيش يعني أن نتعلَّم أن نحبّ، وبالتالي نتعلّم أن نفقد. كلُّ ذلك يتَّفق في ما بينه. لكن من الجيّد القول أنَّنا لا يمكننا التعلّم على الموت لأنّنا لا نملك أي وسيلة لـ"تدريب" أنفسنا.عندما يتعلّم الإنسان الحبَّ عليه القبول بحدوده ومواجهة العجز، وألاَّ يعترض على سيرْ الأمور. هذا ما تُدرّبنا الحياة عليه: القبول بالواقع.

(**ملاحظة:** المحاورة مقتَطفة من كتاب "فنُّ الموت" L'art de mourir، وهو تأليف مشترك بين الطبيبة النفسيَّة Marie De Hennezel وعالم النفس والفيلسوف واللَّاهوتيِّ الفرنسيِّ Jean-Yves Leloup. وقد صدر عن دار Robert Laffont في باريس- فرنسا 18 Novembre 1998).